

فن كتاب السير

بملم الاستاذ محمد عبد الله عنانه

لأعلام الأمم الإسلامية ، منها تراجم ضافية تملأ صفحات كثيرة ، ومنها تراجم موجزة ، ولكنها تمتاز جميعاً بالتحقيق ، ودقة التصوير ، وقوة العرض . ونستطيع ان نقول ان ابن خلكان هو أول مؤرخ عربي جعل من « السيرة » فناً حقيقياً ، وما زال معجمه إلى عصرنا من أهم المراجع التاريخية وأنفسها .

فن التراجم ذروة ازدهاره في القرنين الثامن والتاسع من الهجرة ، وظهرت في تلك الفترة طائفة كبيرة من الموسوعات الحليلة والسير الخاصة ، وخص كل عصر وكل قرن بأعلامه ، وخصت كل طائفة بأقطابها فيما يسمى كتب الطبقات . ونستطيع ان نذكر من آثار هذه الفترة كتاب « أعيان العصر وأعوان النصر » لصالح الدين الصفدي المتوفي سنة ٥٧٦٤هـ ، وهو موسوعة كبيرة في تراجم الأعلام المعاصرين ، لم يصلنا منها سوى بضعة مجلدات . وللصفدي أيضاً كتاب « الوافي بالوفيات » وهو موسوعة عامة في تراجم اعلام الأمم الإسلامية من سائر الطبقات والطوائف منذ الصحابة إلى عصره ، ولم يصلنا منها أيضاً سوى بضعة مجلدات ، وقد ذيل عليها مؤرخ مصر ، أبو المحاسن بن تغرى بردى بمعجمه « المنهل الصافي » ، والمستوفى بعد الوافي » في تراجم الأعلام منذ القرن السابع إلى عصره ، أي إلى منتصف القرن التاسع . ولدينا منذ القرن الثامن سلسلة متصلة من معاجم السير ، يختص كل منها بقرنه ، وهي على التوالي : كتاب « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » لحافظ ابن حجر ، ثم « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » لشمس الدين السخاوي ، وهو من أنفس معاجم الترجمة وأقواها من الوجهة النقدية ، ثم كتاب « الكواكب السائرة بمناب أعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزي ، ثم « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبي الحموي ، ثم « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » لأبي الفضل المرادي .

ومنذ القرن الثاني للهجرة (القرن الثامن الميلادي) يعنى الرواة والمؤرخون المسلمون بالسير والتراجم الفردية . وقد لبثت تراجم العظماء والخاصة حتى العصر الأخير ، تملأ فراغاً كبيراً في الآداب التاريخية العربية . ولم تقف هذه السير عند نوع معين أو طائفة معينة من الأعلام ، بل تناولت رجال السيف والقلم ، والملوك والوزراء ، والقادة والمفكرين والكتّاب والشعراء من كل ضرب ، ومنها الموسوعات العامة ، ومنها المجموعات الخاصة لطوائف أو « طبقات » معينة ، ومنها السير الفردية المسهبة ، ومنها التراجم الموجزة ومنها السير الخاصة المكتوبة بأقلام أصحابها .

وتحظى آدابنا العربية من هذه وتلك بتراث عريض متنوع قد لا تحظى به آداب أية أمة أخرى ، وإن كان مما يدعو إلى الأسف أنه وقف عند المستوى الكلاسيكي ، الذي انتهى إليه في عصر الركود والانحلال ، ولم يكتسب تلك الأوضاع العلمية المصقولة ، التي انتهى إليها فن السير في الآداب الحديثة .

ولا ريب في أن السيرة النبوية الكريمة هي تاج السير العربية جمعاء ، وقد دونت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة ، على يد محمد بن اسحق ، ثم أخذها وهذبها عبد الملك بن هشام في أواخر هذا القرن . وأوضحت من بعد ذلك عمدة السير النبوية اللاحقة . بيد أن فن السير أو التراجم لم يتخذ صورته الأدبية النقدية إلا بعد ذلك بنحو قرنين ، حيث بدأت تكتب السير الخاصة والتراجم المجتمعة . ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع ، وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة ، فنجد الخطيب البغدادي المتوفي في أواخر هذا القرن يستعرض في مؤلفه الضخم « تاريخ بغداد » مئات من تراجم العظماء والخاصة في جميع الدول الإسلامية . وفي القرن السابع وضع القاضي الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته الشهيرة « وفيات الأعيان » في سير العظماء من كل ضرب . ويعتبر معجم ابن خلكان بحق ، من أنفس آثار الترجمة العربية . فهو موسوعة شاسعة تحتوي على أكثر من ثمانمائة ترجمة

ملاحظة .

ولا ريب في أن السيرة النبوية الكريمة هي تاج السير العربية جمعاء ، وقد دونت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة ، على يد محمد بن اسحق ، ثم أخذها وهذبها عبد الملك بن هشام في أواخر هذا القرن . وأوضحت من بعد ذلك عمدة السير النبوية اللاحقة . بيد أن فن السير أو التراجم لم يتخذ صورته الأدبية النقدية إلا بعد ذلك بنحو قرنين ، حيث بدأت تكتب السير الخاصة والتراجم المجتمعة . ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع ، وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة ، فنجد الخطيب البغدادي المتوفي في أواخر هذا القرن يستعرض في مؤلفه الضخم « تاريخ بغداد » مئات من تراجم العظماء والخاصة في جميع الدول الإسلامية . وفي القرن السابع وضع القاضي الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته الشهيرة « وفيات الأعيان » في سير العظماء من كل ضرب . ويعتبر معجم ابن خلكان بحق ، من أنفس آثار الترجمة العربية . فهو موسوعة شاسعة تحتوي على أكثر من ثمانمائة ترجمة

ملاحظة .

ولا ريب في أن السيرة النبوية الكريمة هي تاج السير العربية جمعاء ، وقد دونت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة ، على يد محمد بن اسحق ، ثم أخذها وهذبها عبد الملك بن هشام في أواخر هذا القرن . وأوضحت من بعد ذلك عمدة السير النبوية اللاحقة . بيد أن فن السير أو التراجم لم يتخذ صورته الأدبية النقدية إلا بعد ذلك بنحو قرنين ، حيث بدأت تكتب السير الخاصة والتراجم المجتمعة . ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع ، وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة ، فنجد الخطيب البغدادي المتوفي في أواخر هذا القرن يستعرض في مؤلفه الضخم « تاريخ بغداد » مئات من تراجم العظماء والخاصة في جميع الدول الإسلامية . وفي القرن السابع وضع القاضي الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته الشهيرة « وفيات الأعيان » في سير العظماء من كل ضرب . ويعتبر معجم ابن خلكان بحق ، من أنفس آثار الترجمة العربية . فهو موسوعة شاسعة تحتوي على أكثر من ثمانمائة ترجمة

ملاحظة . ومنذ القرن الثاني للهجرة (القرن الثامن الميلادي) يعنى الرواة والمؤرخون المسلمون بالسير والتراجم الفردية . وقد لبثت تراجم العظماء والخاصة حتى العصر الأخير ، تملأ فراغاً كبيراً في الآداب التاريخية العربية . ولم تقف هذه السير عند نوع معين أو طائفة معينة من الأعلام ، بل تناولت رجال السيف والقلم ، والملوك والوزراء ، والقادة والمفكرين والكتّاب والشعراء من كل ضرب ، ومنها الموسوعات العامة ، ومنها المجموعات الخاصة لطوائف أو « طبقات » معينة ، ومنها السير الفردية المسهبة ، ومنها التراجم الموجزة ومنها السير الخاصة المكتوبة بأقلام أصحابها .

وتحظى آدابنا العربية من هذه وتلك بتراث عريض متنوع قد لا تحظى به آداب أية أمة أخرى ، وإن كان مما يدعو إلى الأسف أنه وقف عند المستوى الكلاسيكي ، الذي انتهى إليه في عصر الركود والانحلال ، ولم يكتسب تلك الأوضاع العلمية المصقولة ، التي انتهى إليها فن السير في الآداب الحديثة .

ولا ريب في أن السيرة النبوية الكريمة هي تاج السير العربية جمعاء ، وقد دونت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة ، على يد محمد بن اسحق ، ثم أخذها وهذبها عبد الملك بن هشام في أواخر هذا القرن . وأوضحت من بعد ذلك عمدة السير النبوية اللاحقة . بيد أن فن السير أو التراجم لم يتخذ صورته الأدبية النقدية إلا بعد ذلك بنحو قرنين ، حيث بدأت تكتب السير الخاصة والتراجم المجتمعة . ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع ، وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة ، فنجد الخطيب البغدادي المتوفي في أواخر هذا القرن يستعرض في مؤلفه الضخم « تاريخ بغداد » مئات من تراجم العظماء والخاصة في جميع الدول الإسلامية . وفي القرن السابع وضع القاضي الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته الشهيرة « وفيات الأعيان » في سير العظماء من كل ضرب . ويعتبر معجم ابن خلكان بحق ، من أنفس آثار الترجمة العربية . فهو موسوعة شاسعة تحتوي على أكثر من ثمانمائة ترجمة

ملاحظة .

ولا ريب في أن السيرة النبوية الكريمة هي تاج السير العربية جمعاء ، وقد دونت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة ، على يد محمد بن اسحق ، ثم أخذها وهذبها عبد الملك بن هشام في أواخر هذا القرن . وأوضحت من بعد ذلك عمدة السير النبوية اللاحقة . بيد أن فن السير أو التراجم لم يتخذ صورته الأدبية النقدية إلا بعد ذلك بنحو قرنين ، حيث بدأت تكتب السير الخاصة والتراجم المجتمعة . ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع ، وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة ، فنجد الخطيب البغدادي المتوفي في أواخر هذا القرن يستعرض في مؤلفه الضخم « تاريخ بغداد » مئات من تراجم العظماء والخاصة في جميع الدول الإسلامية . وفي القرن السابع وضع القاضي الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته الشهيرة « وفيات الأعيان » في سير العظماء من كل ضرب . ويعتبر معجم ابن خلكان بحق ، من أنفس آثار الترجمة العربية . فهو موسوعة شاسعة تحتوي على أكثر من ثمانمائة ترجمة

كتابة التاريخ من أقدم فنون الأدب ، وأكثرها إغراء للأقلام ، لأنها فضلاً عن اقترانها في أحيان كثيرة ، بالإعتبارات والعوامل القومية . تصطبغ كذلك بلون القصص المتع ، والمؤثر أحياناً ، وتفصح عن صور من البطولة اللامعة ، وهذه أشد ما يذكي خيال الانسان ، ويثير طلعتة ، ويملأ ذهنه بمختلف التأملات .

ولا ريب ان فن « السير » من أقم فنون التاريخ . إن لم يكن أقيمها جميعاً فهو يمتاز أولاً باجتماع المادة ، وتقديم الشخصية التاريخية في أنصع مظاهرها ، وإبراز البطولة في ألم صورها ، وهو بذلك أحب الى النفس ، وأقرب الى الخيال .

أقدم العصور تأخذ « السير » مكانتها في الأدب التاريخي ، وقد انتهى إلينا منها ، منذ عصر اليونان والرومان ، نماذج بديعة ، من أقيمها وأمتعها بلا ريب « تراجم فلوتارخوس » المشهورة ، وهي مجموعة مقارنة من تراجم عظماء الرومان واليونان ، أراد بها كاتبها الفيلسوف ، أن يقدم لنا ألواناً متنوعة من البطولة والقيم الأخلاقية ، وقد لبثت هذه السير ، التي ترجمت الى سائر اللغات الحية ، تعتبر على كثر العصور أبداع نماذج من نوعها . وانتهت إلينا من العهد الروماني كذلك عدة آثار قيمة في « السير » المفردة أو المجموعة منها « حياة الإسكندر الأكبر » لكورتبوس روفوس . و « حياة الأباطرة الاثني عشر » لثرانكويوس . واستمرت كتابة « السير » خلال العصور الوسطى فناً يحتضنه الرهبان العلماء قبل كل شيء ، ومن أشهر « السير » المفردة التي انتهت إلينا من تلك الحقبة « حياة كارل الأكبر » لإينهارت .

فطن رواد الأدب العربي الى أهمية « السير » منذ عصر مبكر . وتطورت السير منذ عصر « السيرة النبوية » حتى غدت فناً رفيعاً ، يستكمل كل أصوله الفنية والأدبية . والواقع أن السير أو التراجم تشغل في أدبنا العربي ، وتراثنا التاريخي مكانة

فطن رواد الأدب العربي الى أهمية « السير » منذ عصر مبكر . وتطورت السير منذ عصر « السيرة النبوية » حتى غدت فناً رفيعاً ، يستكمل كل أصوله الفنية والأدبية . والواقع أن السير أو التراجم تشغل في أدبنا العربي ، وتراثنا التاريخي مكانة

فطن رواد الأدب العربي الى أهمية « السير » منذ عصر مبكر . وتطورت السير منذ عصر « السيرة النبوية » حتى غدت فناً رفيعاً ، يستكمل كل أصوله الفنية والأدبية . والواقع أن السير أو التراجم تشغل في أدبنا العربي ، وتراثنا التاريخي مكانة

فطن رواد الأدب العربي الى أهمية « السير » منذ عصر مبكر . وتطورت السير منذ عصر « السيرة النبوية » حتى غدت فناً رفيعاً ، يستكمل كل أصوله الفنية والأدبية . والواقع أن السير أو التراجم تشغل في أدبنا العربي ، وتراثنا التاريخي مكانة

فن كتابة السير

(بقية المقال المنشور على الصفحة ٢)

وكلها تختص بذكر أعلام الغرب الإسلامي ، ومنها كتب يرتفع فيها فن السيرة إلى الذروة ، مثل كتاب الإحاطة لابن الخطيب .

هذا عن الموسوعات ، والمجموعات العامة . وأما عن السير الخاصة ، التي تقتصر على ترجمة شخص معين ، والتراجم الخاصة التي تقتصر على طائفة معينة من الأعلام ، فلدينا منها الكثير أيضاً . ونستطيع ان نمثل للترجمة الخاصة بسيرة عمر بن عبد العزيز لمحمد بن عبد الحكيم المتوفي في اوائل القرن الثالث ، وسيرة المعز لدين الله لابن زولاق المتوفي في أواخر القرن الرابع ، وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي من علماء القرن السادس ، وتاريخ تيمورلنك المسمى «عجائب المقدور» لابن عربشاه الدمشقي من علماء القرن الثامن ، و «ازهار الرياض في أخبار القاضي عياض» للمقري . ولدينا الكثير أيضاً من تراجم الطوائف الخاصة كالفلاسفة والأدباء والقضاة والنحاة وغيرهم ، مثل اخبار الحكماء للقفطي ، وطبقات الأطباء لابن أبي اصيبعة ، وبتيمة الدهر للنعلبي ، ومعجم الأدباء لياقوت ، وقضاة مصر لابن حجر وكثير غيرها . هذا عدا كتب الطبقات الخاصة بتراجم فقهاء المذاهب المختلفة والصوفية ، وهي كثيرة لا يتسع المقام لذكرها .

ويجب

أخيراً ألا ننسى أن الأدب العربي قد عرف كذلك فن السيرة الشخصية ، يكتبها صاحبها بقلمه . ولدينا من ذلك نماذج عديدة ، أروعها وأمتها جميعاً ترجمة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون لنفسه فيما يسمى «بالتعريف» .

إن هذه الأمثلة السريعة التي ذكرناها من نماذج السير في الآداب العربية ، تدلنا إلى أي حد بلغ فن السيرة فيها من الإكمال والتنوع . ونستطيع ان نضيف الى ذلك ، ان هذه السير قد عرفت النقد الأدبي في أحيان كثيرة ، ويكفي أن نمثل كذلك بمعجم سخاوي «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» ففيه يبلغ مؤلفه القمة في النقد الأدبي اللاذع ، حتى انه ليسوغ لنا ان نقارنه دون حرج «بسانت بييف» أمام النقد في الأدب الفرنسي .

• • •

على

أنه يجب أن نذكر مع ذلك أن فن السيرة في الأدب العربي ، قد وقف عند أوضاعه الكلاسيكية القديمة ، ولم يستطع أن يجاري النهضة الفكرية الحديثة في مناح كثيرة . ذلك أن الترجمة الحديثة ، تقوم قبل كل شيء على مناهج التحقيق العلمي والتحليلي ، وإبراز شخصية صاحب السيرة ، على ضوء الحقائق المتعلقة بحياته ، والوثائق المؤيدة لها ، بعيداً عن التحيز للفضائل المنتحلة ، والتي تملأ كثيراً من السير القديمة . ثم أن الترجمة يجب ألا تقف عند سرد الأعمال والحوادث ، بل يجب ان تقوم في نفس الوقت على تحليل دقيق لأخلاق صاحب السيرة ، ومميزاته العاطفية ، ويجب ان تكون شخصية المترجم هي دائماً محور البحث . وتعتمد الترجمة الحديثة فوق ذلك على التحليل النفسي للبواعث والتصرفات ، وقد ادرك ذلك منذ البداية ، فلوتارخوس استاذ فن السيرة في العصر القديم ، حيث يقول في بداية ترجمته للإسكندر : «انه يهمل التفاصيل لأنه لا يريد ان يكتب تاريخاً بل ان يكتب (حياة) . وأعظم الأعمال لا توقفنا على مواطن الفضيلة أو الرذيلة لدى الرجال . ورب امر تافه مثل نظرة أو حركة ، ينبئنا بطريقة أفضل عن أخلاقهم وميولهم بأكثر مما ينبئنا اشهر الحvarsات والتسليحات وأروع الحروب .»

ان السيرة المكتملة التي تقوم على هذه الأسس العلمية والفنية والنفسية ، والتي تقدم اليك اوضح الصور وأدقها عن شخصية المترجم ، هي التي تملأ ذهنك وخيالك ، وتشعرك حينما تستعرض مراحل حياتها ، وظروف عصرها ، انك كأنما كنت تعيش في هذا العصر ، وتعرف هذه الشخصية وتلمس حركاتها وتصرفاتها عن كتب .

اننا مع الأسف ، لا نجد في تراث السير المعروفة في الأدب العربي ، على ضخامته وتنوعه ، عن آثار السير ما يضارع آثار السير الحديثة ، في الآداب الغربية . ففي الوقت الذي ركزت فيه الآداب الغربية ، منذ خاتمة العصور الوسطى ، كانت الآداب الأوروبية ، منذ عصر النهضة او عصر الاحياء ، تسير قدماً في سبيل التقدم والإزدهار ، وتستكمل اسباب تنوعها وصلتها ، سواء من حيث المادة أو الاسلوب ، وقد انتهت فيها كتابة السير بالأخص إلى ذروة الإكمال الأدبي والفني ، ووضحت السير ، مع ارفع

لميسر

فنون الأدب ، التي تبرز في ميدانها المع الأذهان والأقلام .

ويكفي ان نذكر هذه النماذج القليلة من السير الأوروبية : فمن آثار عصر الاحياء ، حياة دانتي بقلم بوكاشيو ، وحياة تشليني بقلمه ، وهي من أروع آثار السير الشخصية ، وتراجم المصورين والمثالين لفاساري . ومن آثار السير الحديثة «حياة الدكتور جونسون» بقلم بوسويل ، وهي التي يعتبرها النقد أبداع ترجمة في الأدب الإنجليزي بل في الآداب الغربية كلها ، و«حياة جيته» بقلم لويس ، و«حياة نلسون» بقلم الشاعر سوذي ، و«حياة نابوليون» بقلم لوكهارت و«حياة جيبون» بقلمه ، وكلها أيضاً من آثار الأدب الإنجليزي ، و«حياة لوثر» بقلم كولد ، و«حياة بسمارك» بقلم بلوم ، وهما من آثار الأدب الألماني ، و«حياة لويس الرابع عشر» بقلم فولتير ، وهي من آثار الأدب الفرنسي . و«حياة السيد» بقلم بيدال وهي من آثار الأدب الأسباني . وغيرها . إن في استعراض هذه النماذج ما يكفي لتكوين فكرة عما بلغه فن السير التاريخية ، في مختلف الآداب الأوروبية من الإكمال الفني والأدبي ، ومن دقة البحث والتصوير ، ومن قوة العرض وبراعة المنهج ، وروعة الأسلوب .

نرجو ، وقد دخلت الآداب العربية في عصرنا الحاضر في طور جديد من القوة والإحياء ، وتقدمت البحوث التاريخية ، وبدأت تقتبس المناهج النقدية ، ان ينال فن السيرة ما هو جدير به من العناية ، وان تكتب سير أبطالنا وعظمائنا ومفكرينا ، بنفس الأسلوب العلمي النقدي الذي سارت عليه التراجم الأوروبية الحديثة ، من تحقيق الوقائع وإبراز الصور وتحليل البواعث والمشاعر ، كل ذلك على ضوء الوثائق والأدلة والقرائن المادية والأدبية . والواقع أننا نستطيع أن نقول ان البحوث التاريخية المعاصرة في الأدب العربي ، قد أخذت تتجه الى هذا الهدف ، وان كتابة السيرة قد بدأت كذلك تقتبس المناهج النقدية ، وان البواكير الأولى في هذا الميدان ، تدل على أننا قد بدأنا ندرك ماهية فن السير الحقيقي ، وانه لن تمضي فترة من الزمن حتى تنضج بحوثنا ، ونستطيع أن نخرج من سير أبطالنا ، وعظمائنا ، ما يضارع مثلاتها في الآداب الغربية ، من حيث الإكمال العلمي والفني .

ونحن